تقـــديم(*)

بقلم: أ.د. عبدالفتاح عبدالله بركة
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله، يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله معدن الأسرار، ومحيط الأنوار وناشر العلم، وباسط الحكمة، ومزكي الأمة، وعلى آله وصحبه، وأتباعه إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذه كلمات حكيمة صاغها الإخلاص لله ولرسوله، ولأمة المسلمين، وقدمتها الغيرة والحمية الدينية، تنبيهاً للغافلين، وتبصيراً للمستبصرين.

ولقد ناقشت هذه الكلمات أكذوبة كبيرة من أكاذيب عصر العلم المادي الذي يَعِدُ الإنسان بما لا يملك، ويبسط له بساط الأحلام الكاذبة والأماني الخادعة، حتى إذا تحقق مما في يده لم يجده شيئاً، تلك الأكذوبة الكبيرة هي أكذوبة الشيوعية التي خدعت -وما تزال تخدع- كثيراً من الأمم والشعوب بسبب ما عانت من ضغط الاستبداد وسوء الإدارة، ومطامع الاستعمار، واستغلال المغامرين ومن لا

(*) هذا التقديم كما هو لم نغير فيه شيئًا وإن كان قد كتب عام ١٤٠٩هـ.

خلاق عندهم ولا ذمة ولا عهد، وحين استجاروا بهذه النظريات الخادعة، ليخرجوا من حر الرمضاء، أوقعتهم هذه النظريات في لظى النار، وما زالوا يتقلبون في سعيرها، حتى يدركوا عبث صنيعهم، وسوء تقديرهم.

وهذه الكلمات تحاول أن تفتح بعض الأعين، وتنير بعض مشاهد المواقف ليحيى من حَيَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.

وهي وإن كانت تصلح لتخاطب الإنسانية بصفتها العامة، إلا أنها موجهة أساساً إلى تلك الأمة الإسلامية التي تمتلك بيدها مصباح هدايتها وتعرف بمبادئها طريق رشادها، وتدرك تلك المآسي التي حاقت بها عندما هجرت تراثها، وأعرضت عن أصولها، وتوجهت إلى هذا السراب، فذاقت ما ذاقت من فرقة وشتات، وقاست ما قاست من نزاع وفشل.

ومن الغرائب أن يكون الأمر واضحاً فيما تبديه الشيوعية وأهلوها من عداوة عامة للأديان جملة، وعداوة خاصة للإسلام وأهله، لا تخفى من ذلك فعلاً ولا تزخرف قولاً ولا تكاد توارب أو تداهن، ثم بعد ذلك تهون علينا مقدساتنا ونقف أمام هذا الغزو الفكري والعلمي العقائدي والحضاري والأخلاقي موقف المتخاذل، كأن لم يكن لنا تاريخ، وكأن لم نملك نظاماً عقائدياً وحضارياً وفكرياً وأخلاقياً كفل لنا السيادة والقيادة في أحقاب طويلة من الدهر، أوكأن هذه الأفكار والنظريات تقدم لنا ما نحن في أشد الحاجة إليه، ونحن نعلم أنها تقدم لنا الداء الوجيع والسم النقيع.

وفي هذه الكلمات -مع ما في موضوعها من صعوبة نفسية- حسن تأنٍّ وتلطف في العرض شأن الناصح الأمين الذي يخفي معاناته من أجل أن تقبل نصيحته وتثمر هدايته.

وعسى أن تجد هذه الكلمات الطيبة أرضًا خصبة ومنبتًا كريمًا، وأن يضاعف الله لمن قدمها الأجر لقاء إخلاصه ونصحه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

في غرة رجب الفرد ١٤٠٩هـ

أ.د. عبد الفتاح عبد الله بركة

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

بين يدي الكتاب

الحمد لله يكور النهار على الليل ويكور الليل على النهار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له العزيز الغفار، وصلى الله على نبينا محمد سيد المصطفين الأخيار وعلى آله الأطهار وصحبه الأبرار.

وبعد:

فإن قضية الإيمان بالله تعتبر من أهم القضايا وأخطرها في حياة البشرية بأسرها، إذ عليها يترتب الفلاح في الدنيا والفوز في الآخرة، أو الخسران والبوار في كليهما معًا، ولهذا عالجها القرآن الكريم بأنجح الوسائل، حيث ساق العقل البشري سوقا رفيقا وجذب العاطفة جذبا رقيقا إلى النظر والتفكير في آيات الله وفي مخلوقاته من الذرة إلى المجرة، ومن بينها الأنفس البشرية أيضًا حتى ينتهي الإنسان إلى الإيمان بالله والإقرار له بالوحدانية، والاعتراف له بالربوبية وأداء حقه سبحانه من العبودية، ولنقرأ قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

والمعنى على ما ذهب إليه جمع المفسرين: أنه تعالى نصب للناس في كل شيء من مخلوقاته ومنها أنفسهم دلائل توحيده وربوبيته، وركز فيها بصائرًا وعقولًا يتمكنون بها تمكنًا تامًا من معرفتها، والاستدلال بها على التوحيد والربوبية، حتى صاروا بمنزلة من إذا دعي إلى الاعتراف بها أسرع إليه دون شك أو تردد، فالكلام على سبيل المجاز التمثيلي لكونهم في مبدأ الفطرة مستعدين جميعًا للنظر المؤدي إلى التوحيد، ولا إخراج للذرية ولا قول ولا إشهاد بالفعل.

وذهب جمع من السلف إلى أن الله تعالى أخرج من ظهر آدم ذريته كالذر وأحياهم وجعل لهم العقل والنطق، وألهمهم ذلك الإقرار، لحديث عمر بن الخطاب رضي الله

تعالى عنه، وقد أفاض العلامة الآلوسي في هذا المقام بما لا يتسع له هذا التقديم فارجع إليه إن شئت[١].

ولله در القائل:

فيا عجبًا كيف يعصى الإلهُ أو كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وقضية الإيمان والكفر قضية أزلية لا يخلو منها عصر من العصور، ولقد وقف الفكر المادي من الإيمان بالله موقف الجحود والكنود والرفض المطلق الذي وصل إلى درجة الكفر -والعياذ بالله- وكان أبرز صور هذا الفكر في العصر الحديث المادية الشيوعية التي جعلت من الأديان ومعتنقيها الهدف الأول، ولما كان الإسلام هو الذي رضيه الله لعباده دينًا فقد حظي من عدائها بالحظ الأوفر والنصيب الأكبر.

فقد أتى حين من الدهر تسلط فيه الفكر المادي في صورة المادية الشيوعية على بلدان كثيرة من الوطن الإسلامي حتى تباهى بعض ضعاف النفوس بأنهم ماديون شيوعيون وماركسيون إلى آخر هذه المسميات، ونظروا إلى المؤمنين بالله نظرة استهتار مشوب باحتقار، وأصبح من الطبيعي أن تسمع زميل دراسة يقول في غير ما خجل -عندما يسمع الأذان: «إن هذا هو سبب تأخرنا!!» (نعوذ بالله من هذا البهتان)، ومرت الدعوة الإسلامية بسنوات شداد ولكن الله ربط على قلوب المخلصين.. والدعوة الإسلامية هي دعوة الله، وهي لا ترد ولا تصد لأنها دعوة الله.

وخرج الماديون على الناس بركام من النظريات وعرام من الشهوات وألقوا مجموعة من الأسئلة ليستروا بها سوءاتهم. ومن بين هذه الأسئلة:

هل لهذا الكون من خالق؟

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - العلامة محمود الألوسي البغدادي -طبعة دار الفكر - بيروت. ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م - الجزء التاسع - صفحة ١٤٦ وما بعدها.

لماذا نحن هنا؟

لماذا تكرهون الفكر المادي؟

لماذا لا تجربون صورة من صوره العملية وهي الشيوعية؟

لماذا ولماذا... الخ؟ وهي الأسئلة التي طالما رددها السائرون في موكب الضلال والإضلال قديمًا وسيرددونها حديثًا.

وكان لابد من وقفة ولابد من مناقشة موضوعية هادئة وجدال بالتي هي أحسن بعيدًا عن العواطف الثائرة.

كان لا بد من ذلك لنسف هذا الفكر وكشف انحطاطه من جميع الوجوه وبيان أنه فكر لا يقوم على حقائق علمية أو عوامل تاريخية أو روابط إنسانية أو أسس اجتماعية سليمة، حتى يبدو الصبح لذي عينين ولا يضيع وسط ظلمات الأوهام والدعايات المغرضة وجلبة الباطل وصخبه. ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

ولجأت إلى الله تبارك وتعالى وتبرأت من حولي وقوتي إلى حوله وقوته وسألته الفتح والسداد في الفكر والقول والعمل وهو تبارك وتعالى أكرم من أن يرد يدي عبده صفرًا.

وتناولت اليراع والقرطاس منذ أكثر من عقد من الزمن، فكانت هذه الصفحات التي أذن الله لها أن تنشر في أكثر من مجلة داخل مصر وخارجها، ثم كانت إضافات فتح الله بها.

وقد أعطيت هذه الصفحات لإحدى دور النشر لتصدرها في كتاب وكان ذلك في رجب ١٤٠٩هـ، أي من ست سنوات[1]، وسقطت المادية الشيوعية في معقلها وسقط معها الفكر المادي، ولم يخرج الكتاب إلى النور وكان بلاغًا إلى الناس وإرهاصًا بذلك السقوط، وكدت أصرف النظر عنها، ونفسي تذهب عليها حسرات.

---

(١) كان ذلك وقت كتابة هذه الكلمات.

ولكن بعض الأخوة المخلصين -جزاهم الله خيرًا- أشاروا عليَّ بنشرها؛ لأن سقوط المادية الشيوعية في معقلها لا يعني سقوط الفكر المادي جملة وتفصيلًا، ولا انتزاعه من قلوب وعقول معتنقيه والذين نشأوا في أحضانه فصاروا خدامًا له يتبتلون في محرابه ويتمسحون بأعتابه.

كما أنها تشير إلى مرحلة تاريخية لا يمكن أن تمحي من تاريخ المجتمعات التي اعتنقت هذا الفكر نظريًّا وعمليًّا، وما ترتب على ذلك من ربح أو خسارة، وما في ذلك من العظة والعبرة لها وللمجتمعات الأخرى.

وأن سقوط الشيوعية لا يعني عدم بعثها من جديد بصورة أظلم وأطغى، لأن الحق والباطل في صراع دائم إلى يوم أن يقوم الناس لرب العالمين.

خاصة وأن الحزب الشيوعي في روسيا وفي بعض الدول التي انسلخت من الاتحاد السوفيتي بدأ ينظم صفوفه ويرفع راية المعارضة ضد النظام الجديد، وقد حقق -بالفعل- نجاحًا كبيرًا في بولندا وروسيا في انتخابات (١٩٩٥م).

وها هي ذي بين يديك أخي القارئ -تحمل عنوان «انحطاط [١] الفكر المادي»- فإن انتفعت بشيء منها فذلك فضل من الله الذي حبب إليك بضاعتي المزجاة وزينها في عينيك ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر والعرفان إلى العالم الجليل الأستاذ الدكتور فضيلة الشيخ عبد الفتاح عبد الله بركة أستاذ العقيدة بجامعة الأزهر والأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية وقت كتابة هذه الصفحات الذي أكرمني الله به، فوجدت فيه

(١) انحط: نزل وانحدر. وانحط السعر: رخص. يقال الأسعار حاطة ومنحطة. والانحطاط النفسي: ضعف في القوى التفكيرية.

تواضع العلماء، وأدب الكبراء، وتوجيه الأستاذ، وعون المحب، وإرشاد الخبير، ونصح الأمين فجزاه الله عني خير الجزاء.

وأسأل الله أن يتقبلها بقبول حسن، وأن تكون في صحائف الحسنات لكل من كتبها ولكل من ساعد على نشرها يوم يقال لكل إنسان: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

جدة ١٩ من رمضان
١٤١٤هـ[١]
(١/ ٣/ ١٩٩٤م).
وكتبه طالب العلم
الدكتور غريب جمعة

(١) هذا التاريخ كان عند محاولة -أو المحاولات- الأخرى لنشر الكتاب، ولكنها لم تتم وقد تركته كما هو حتى لا ييأس كاتب من روح الله.